المقدمة

هذا العمل محاولة للإفادة من معطيات علم اللغة بفروعه ومناهجه وإجراءاته فى تحليل اللغة الأدبية التى تمثل المستوى الفنى من مستويات الاستخدام اللغوى.

إذا كان هذا الميدان من ميادين الاشتغال باللغة قد صار غنياً بباحثيه وبحوثه فى الدراسات المعاصرة فى أوربا وأمريكا، فقد عرفه تراثنا فى صور مختلفة، حين اتخذ النحاة من لغة الشعر والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف (وهى كما يبدو لغات ذات طبيعة فنية على تفاوت بينها) وسيلة لاستخراج قواعد العربية والاستشهاد عليها، وحين اتخذ اللغويون تلك اللغات للكشف عن ظواهر اللغة وقضاياها ومسائلها النظرية.

ويختلف الأمر عند النقاد والبلاغيين؛ فقد دار البحث فى اللغة الأدبية، لاسيما لغة الشعر، بين هاتين الطائفتين على أنها غاية، أى دراستها لذاتها، باعتبار العمل الأدبى – أياً كانت صورته – خلقاً لغوياً، يستقل بمواصفات فنية وجمالية خاصة، تميزه عن اللغة المعيارية الآلية، متفقين فى ذلك – إلى حد بعيد– مع ما يعرف فى الدراسات الأسلوبية المعاصرة بـ (أسلوبية الانحراف).

وإذا كان المبنى عند النحاة واللغويين هو مدار البحث فى اللغة وغايته الجوهرية، فإنه قد جعل عند النقاد والبلاغيين منطلقاً أولياً لتشخيص المعنى، فهو عندهم مدار البحث وغايته.

وقد استحدث علم اللغة فروعاً مختلفة، تخدم دراسة اللغة الأدبية، مثل علم الأسلوب أو علم اللغة الأسلوبى، وعلم اللغة النصى، وهى فروع اجتهدت جميعاً فى تخليص التحليل اللغوى للأدب من آفة الانطباعية والسطحية من ناحية، كما حاولت أن تجعل لكل جنس أدبى، كالشعر والرواية والمسرحية، أسسه ومعاييره الخاصة فى التحليل من ناحية أخرى.

ولا يستطيع الباحث اللغوى المعاصر أن يغض النظر عما حققته الفروع السابقة من تقدم وازدهار على المستويين: النظرى والتطبيقى، بل إنها توجب علينا أن نجدّ فى الإفادة منها لتعميق البحث اللغوى فى اللغة الأدبية وتوسيعه، غير عزوفين عن الاستضاءة باللمحات الذكية والآراء الصائبة والمصادر الأصيلة فى تراثنا اللغوى والبلاغى.

ويحدونا فى ذلك كله تعميق الصلة بين علم اللغة والدراسة الأدبية وإثراء أحدهما بالآخر. وتصلح جملة الأفكار السابقة فى تأسيس عناصر المنهج الفكرى العام الذى انتهجته واسترشدت به فى هذا العمل الذى بين أيدينا. ولن يتحقق طموح الباحثين فى وضع نظرية علمية للبحث فى لغة الأدب العربى: قديمه وحديثه، بين يوم وليلة، ولن يتحقق من فراغ،

بل لابد من إحياء الأفكار الصالحة فى التراث، والإفادة من الدراسات الحديثة فى الغرب، والإخلاص للبحوث التطبيقية، مهما كانت صعوبتها واختلاف وجهات النظر أحياناً حول نتائجها .

وقد جعلت هذا الكتاب فى قسمين: أولهما مدخل نظرى، أردت به أن أعرض عرضاً موجزاً للجوانب المهمة التى تكشف عنها فروع علم اللغة الحديث فى تحليل اللغة الأدبية وبيان خصائصها وسماتها المميزة على نحو علمى موضوعى.

أما القسم الآخر، فهو الدراسات التطبيقية التى أجريتها على أجناس أدبية مختلفة؛ هى الشعر والرواية والمسرحية. وقد أتاح ذلك فرصة طيبة لمراجعة إنتاج طائفة من رواد الأدب العربى الحديث من منظور لغوى تخصصى من ناحية، كما أظهر من ناحية أخرى أن طرق التحليل اللغوى وإجراءاته تتشعب وتتفاوت بالضرورة بتفاوت هذه الأجناس الأدبية فيما بينها – بدرجة أو بأخرى – فى أسسها الإبداعية وأصولها البنائية.

وجدير بالإشارة هنا أن الدراسات اللغوية التطبيقية التى اشتمل عليها هذا الكتاب ليست مقصودة لذاتها فحسب، وإنما جعلت من كل دراسة منها مجالاً لمعالجة قضية أو ظاهرة أو فكرة لغوية أساسية؛ فقد ركزت فى دراستى للغة السياب على مدى اقترابه أو ابتعاده عن النموذج اللغوى الكلاسيكى والرومانسى. وجعلت من دراستى للغة صلاح عبد الصبور مجالاً لبحث إشكالية تعويل الشعر الجديد فى مرحلة تالية على لغة الحياة اليومية واستثماره إياها فى إنتاج النص الشعرى. وجعلت من التحليل اللغوى النصى الذى أجريته على نموذج من شعر محمود درويش مجالاً للكشف عن حركية اللغة فى نصوص شعرية ذات خاصية درامية، يتعدد فيها الصوت الشعرى. وهى خاصية تزهو بها مدرسة الشعر الجديد فى مرحلتها المتطورة.

وإذا كانت الدراسات المعاصرة فى الغرب قد نهضت بالبحث فى لغة الرواية نهضة كبرى، فإن الرواية العربية مازالت تفتقر افتقاراً شديداً إلى جهود اللغويين المحترفين فى الكشف عن خصائص الاستخدام اللغوى فى الرواية، وما يميزها عن الأجناس الأدبية الأخرى من هذه الناحية. فى هذا الإطار كانت دراسة الخطاب الروائى فى " ثرثرة فوق النيل" للروائى الكبير نجيب محفوظ مجالاً لبحث الوظائف الإخبارية والدلالية للغة الروائية من ناحية، ومجالاً لبحث خضوع التعبير اللغوى لمقتضيات البنية الروائية، وأثر السياق الروائى: اللغوى وغير اللغوى فى تشكيل النسيج اللغوى الحوارى والسردى على نحو بعينه من ناحية أخرى.

أما البحث فى المسرحية، فقد عنى بإشكاليتين أساسيتين: أولاهما إعادة النظر فى اللغة الثالثة التى أثارها توفيق الحكيم ومارسها عملياً فى عدد من مسرحياته، والحكم على تلك التجربة من منظور لغوى محض من ناحية (أعنى إمكانية قبول مثل هذه اللغة الثالثة فى جسد العربية)، والحكم على أثر الصيغة التى بدت بها هذه اللغة فى مسرح الحكيم على المستوى الفنى الدرامى من ناحية أخرى .

أما الإشكالية الثانية، فهى الوقوف على الخواص الدقيقة التى تميز الحوار المسرحى عن سائر أنماط الحوار الأخرى، باعتباره حواراً منطوقاً، لاسيما أن النص المسرحى الذى نعالج من خلاله هذه القضية المحورية، وهو " رطل اللحم " للدكتور إبراهيم حمادة، يمثل تجربة إبداعية جديدة على المسرح العربى، من حيث اختلاف أحد فصليه عن الآخر – على نحو ما سنرى– فى الشخصيات ونمط الحوار.

وأود الآن أن أختم هذه الكلمات بعبارة هيجل الشهيرة: " إن أصغر عمل متحقق هو أكبر قيمة من أجمل فكرة لم تستطع أن تتجاوز دائرة الإمكان، فبقيت مجرد مشروع ".

المؤلف

obeikandl.com